الزلازل

بين الأسباب والحكمة



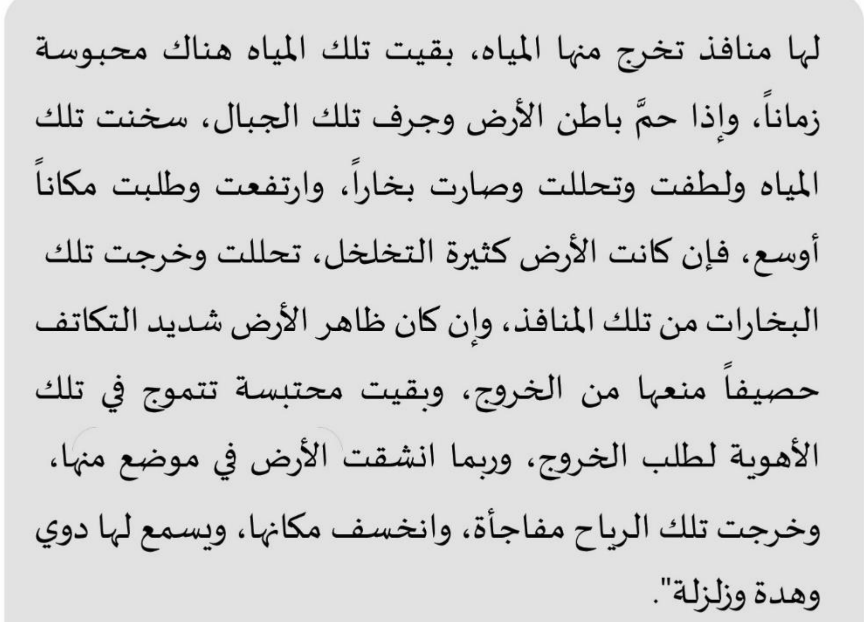
د. محمد محمود كالو/سوريا

لقد أكثر الخالق سبحانه وتعالى من ذكر الأرض في كتابه العزيز، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها، فإنه خلق الأرض فراشًا ومهادًا، وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم، وجعلها كفاتًا للأحياء والأموات، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات.

ومن حكمة الباري سبحانه أنه يسوق الآيات

إلى عباده ليذكرهم ويخوفهم بها، ومن هذه الآيات الزلازل، وهي أمر لم يحصل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان أول ما زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ في التاريخ الإسلامي عَلَى عَهْدِ أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه حَتَّى اصْطَفَقَتْ السُّرَرُ، فأنكرها وقال: «لَئِنْ عَادَتْ لَأَخْرُجَنَّ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيكُمْ» [رواه ابن أبي شيبة].

ويحاول إخوان الصفا تفسير الزلازل بقولهم: "إن الكهوف والمغارات والأهوية التي في جوف الأرض والجبال، إذا لم يكن



لها منافذ تخرج منها المياه، بقيت تلك المياه هناك محبوسة زماناً، وإذا حمَّ باطن الأرض وجرف تلك الجبال، سخنت تلك المياه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً، وارتفعت وطلبت مكاناً أوسع، فإن كانت الأرض كثيرة التخلخل، تحللت وخرجت تلك البخارات من تلك المنافذ، وإن كان ظاهر الأرض شديد التكاثف حصيفاً منعها من الخروج، وبقيت محتبسة تتموج في تلك الأهوية لطلب الخروج، وربما انشقت الأرض في موضع منها، وخرجت تلك الرياح مفاجأة، وانخسف مكانها، ويسمع لها دوي وهدة وزلزلة".

أما الجغرافي العربي القزويني فيشبِّه حركة الزلزلة بانتفاض جسد المحموم، فتهتز لذلك بقاع الأرض وتضطرب كما يضطرب بدن المحموم عند شدة الحمى.

ويقدم الشيخ الرئيس ابن سينا مقترحاً لتقليل مخاطر الزلازل في المناطق التي تشتهر فيها، حيث يرى أن الأراضي التي تكثر فيها الزلازل إذا كثر فيها حفر الآبار وشق القنوات،



قلل ذلك من خطر رجفات الزلازل؛ لأن تلك الغازات المحتقنة، وجدت مسارب للخروج إلى ظاهر الأرض والتسرب في الهواء.

وأياً ما كان سبب الزلازل فإنها آية من آيات الله تعالى، يخوف الله بها عباده، كما يخوّفهم بالخسوف والكسوف وغيره من الآيات، وكما أن لها أسباباً؛ لها أيضاً حِكَم، فكونها آية يخوّف الله بها عباده هي من حكمة ذلك، وكون الزلازل لها أسباب يشرحها علماء طبقات الأرض، ويتحدثون عن تحرك الصفائح التكتونية والموجات والاهتزازات، فإن هذه الأسباب الدنيوية لا تنفي كون هذه الزلازل آيات يخوّف الله بها عباده، قال الله تعالى: **{وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً}** [الإسراء:59]،

وليس ليحسبوها بمقياس ريختر فقط.

لكن أين أولئك الذين يخافون من آيات الله سبحانه؟ هناك بعض الناس قلبه صلب قاس كالحجر، لا يعتبر بالزلازل مهما تتابعت، قال الله عز وجل عن هؤلاء: **{وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً}** [الإسراء:60].

وهكذا كما يكون للزلازل أسباب لها حِكم أيضاً، فينبغي ألا يخلط المسلم بين السبب والحكمة، كما لا ينبغي أن يشغله السبب عن الحكمة؛ ولذلك يجب اللجوء والتضرع إلى الله تعالى، قال الباري سبحانه: **{فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأنعام:43].

ولَمَّا نَزَلَتْ هذِه الآيَةُ: **{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}** [الأنعام: 65]، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: **«أعُوذُ بوَجْهِكَ»،**
قالَ: **{أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}،**
قالَ: **«أعُوذُ بوَجْهِكَ»،**
{أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: **«هذا أهْوَنُ -أوْ هذا أيْسَرُ».** [رواه ابن خزيمة].

والعذاب من فوق: كَالحِجارةِ الَّتي أُرْسِلَتْ على قومِ لُوطٍ، والماءِ المُنهمِرِ الَّذي أُنزلَ على قومِ نُوحٍ فأغرَقَهم، وغيرِ ذلك، والعذاب من تحت الأرجل:كالخَسفِ بِقارونَ، وإغراقِ آلِ فِرعونَ، أما الاختلافُ والفِتنةُ فأيسرُ مِنَ الاستئصالِ والانتقامِ بعَذابِ الله تعالى، وقوله: «أَعوذُ بوجهِك»، أي: أَستجيرُ بِك وَألْتَجئُ وأتضرَّع إليك.

والسؤال الذي يختلف فيه كثير من الناس اليوم: أهذه الزلازل عقوبة أم ابتلاء؟

إن الزلزال ليس ابتلاء فحسب، ولا عقوبة فقط، بل إنه ابتلاء للمؤمنين، فكل مؤمن أصابه من الزلزال ما أصابه، وهو موحد وطائع لله، ومتمسك بدينه، فإنه ابتلاء بحقه، يزيد الله تعالى حسناته، ويرفع به درجاته.

أما إذا كان من غير الموحدين بالله، والمعادين لدينه، فهذا في حقه عقوبة، وشر مستطير، وقد يرجع إلى الله فيتوب، وهذا هو المرجو، لأن الله عز وجل يذكرنا:
{لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}[الأنعام:42]،
{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[الروم:41]،
{ولَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [البقرة:221].

وقد لا يُحْدِث الزلزال لبعضهم إلا الزيادة في الكفر والمعاصي والعياذ بالله، قال الله تعالى: **{وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً}** **[الإسراء:60].**

وأخيراً: ينبغي لكلّ واحد منّا أن يتذكّر أنّ كلّ يوم يصحو فيه وهو في عافية، وأهله وأبناؤه بخير حال، آمن وسليم في بيته، وعنده متاعه وقوته، هو يوم يستحقّ أن يحمد الله تعالى بقلبه وجوارحه وعروقه قبل لسانه، وقد قال المصطفى -عليه الصّلاة والسّلام-: **«مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِهِ، مُعافًى في جسدِهِ عندَهُ قوتُ يومِهِ، فَكأنَّما حيزت لَهُ الدُّنيا»** **[رواه الترمذي].**

